من ياسر عرفات إلى مادونا: كيف أصبحت الكوفية الفلسطينية رمزًا عالميًا؟

كتبه نيلوفر حيدري | 14 ديسمبر ,2023

ترجمة وتحرير: نون بوست

في الشهر الماضي؛ كان ثلاثة طلاب جامعيين في بيرلينجتون، فيرمونت، عائدين إلى منازلهم بعد عيد الشكر – وهو الثاني لهم في الولايات المتحدة، بعد التقدم للدراسة في الخارج من منازلهم في الضفة الغربية في سنة 2021. ووفقًا للشرطة، فإن الثلاثي – هشام عورتاني وكنان عبد الحميد وتحسين أحمد – زُعم أن جيسون جيه إيتون اقترب منهم، وبدأ في إطلاق طلقات من مسدس عليهم دون أن ينبس ببنت شفة. ولم يكن إيتون يعرف الطلاب، وكل ما استطاع رؤيته هو أن اثنين منهم كانا يرتديان الكوفية، الوشاح الأسود والأبيض الذي ارتبط بشكل لا يمحى بالنضال الفلسطيني لأكثر من نصف قرن.

أدى مناخ تزايد الإسلاموفوبيا في أعقاب الحرب بين إسرائيل وغزة إلى عدد من جرائم الكراهية ضد المسلمين في الأسابيع الأخيرة، وغالبًا ضد أشخاص يرتدون الكوفية، فقد أُلقي القبض على امرأة في بروكلين في أعقاب حادثة ألقت فيها القهوة على رجل يرتدي الوشاح التقليدي باللونين الأبيض والأسود، وقام حارس أمن بسحب الوشاح من رقبة أحد الحضور في إضاءة شجرة عيد الميلاد في

مركز روكفلر بمدينة نيويورك.

ولكن كيف أصبح تاريخ الوشاح ـ الذي تبناه كثيرون في العالم العربي وفي مختلف أنحاء العالم، حيث ارتدته شخصيات من نيلسون مانديلا إلى مادونا إلى فيدل كاسترو ـ مرتبطًا بشكل كبير بالمسعى الفلسطيني لتقرير المصير؟

غالبًا ما يشار إليها باسم العلم غير الرسمي لفلسطين – خاصة خلال الفترة التي حظر فيها الاحتلال العلم الرسمي لفلسطين، بين سنتي 1967 و1993 – الكوفية، تُترجم حرفيًا إلى "نسبة إلى الكوفة"، المدينة العراقية التي تنتمي إليها الكوفية؛ حيث يعتقد أنها نشأت هناك. وفي فلسطين، كانت في البداية قطعة قماش بيضاء عادية يرتديها المزارعون الذكور والبدو كغطاء رأس عملي لعدة قرون للمساعدة في الحماية من حروق الشمس والبرد والغبار والرمل. وعلى النقيض من ذلك، كان الفلسطينيون الحضريون يرتدون في كثير من الأحيان الطربوش الأحمر التركي.

رجال من الفيلق العربي في شرق الأردن يدخنون السجائر في الخارج بالقرب من صف من الجرار في سنة 1941.

لقد أصبحت الكوفية رمزًا للمقاومة السياسية في الثلاثينيات، عندما توحد الفلسطينيون من جميع الخلفيات ضد الحكم الاستعماري البريطاني. وعندما بدأ المقاتلون من أجل الحرية الريفية، المعروفون بالفدائيين، بشن هجمات ضد القوات البريطانية في مدنهم، كان من السهل التعرف عليهم بسبب الكوفية. وقالت جين تينان، المؤرخة الثقافية في جامعة فريجي أمستردام، عن القرار الرمزي: "لقد اجتمع الفلاحون والبرجوازية معًا لمقاومة الاحتلال. وتم تعزيز الشعور بالأمة عندما اعتمدت كلا المجموعتين الكوفية، مما أدى إلى انهيار علامات الهوية".

ووفقًا لعالم الإثنوغرافيا يوسف مسعد، مؤلف كتاب التأثيرات الاستعمارية: صناعة الهوية الوطنية في الأردن؛ فإن شعبية الكوفية ذات المربعات باللونين الأبيض والأسود على وجه التحديد كرمز للجنسية الفلسطينية تعود إلى منتصف القرن العشرين عندما قام غلوب باشا، وهو ضابط بريطاني بجعل الكوفية جزءًا من الزي الرسمي لقواته الصحراوية شبه العسكرية، وكتب في كتابه: "كان من المفترض أن تكون الحتا الحمراء والبيضاء [الكوفية] بمثابة علامة، لتمييز الأردنيين "الحقيقيين" عن الأردنيين الفلسطينيين، الذين بدورهم تبنوا الحتا باللونين الأبيض والأسود كتعريف وطني لفلسطينيتهم في السياق الوطني للأردن. إن الاختيار التعسفي الذي قام به غلوب حدّد أحد الرموز الجندرية الأكثر وضوحًا واستفزازًا للأردن والقومية الفلسطينية".

وكانت الكوفية الحمراء والبيضاء مصنوعة من القطن السميك، ومن المثير للدهشة أنها كانت تُصنع في كثير من الأحيان في ذلك الوقت في مصانع القطن البريطانية، لتصبح أغطية الرأس المعتمدة لقوة الشرطة البريطانية الاستعمارية في فلسطين، وقوات الدفاع السودانية، والقوات العربية الليبية. وبمرور الوقت، أصبحت ذات شعبية كبيرة لدرجة أن الفلسطينيين كانوا يرتدونها أيضًا.

وأوضحت جين أن "عمليات نقل السكان وتهجيرهم، نتيجة المصادرة الجماعية للأراضي ومعها تراجع النشاط الزراعي، دفعت الفلسطينيين إلى البحث عن رموز تعارض الواقع المادي للاستعمار الاستيطاني. ولقد عززت الكوفية الارتباط بالأرض الفلسطينية، مع البحر الأبيض المتوسط، مما يسلط الضوء على الضرر الذي يلحقه الاحتلال بالهوية الجماعية للشعب الفلسطيني. وهذا له صدى لدى مختلف المجموعات التي تسعى إلى العدالة الاجتماعية، من مناهضي الرأسمالية إلى نشطاء المناخ".

ياسر عرفات وفيدل كاسترو في حفل تنصيب نيلسون مانديلا سنة 1994.

أصبحت هذه الرمزية أكثر وضوحًا في الستينيات مع ازدهار حركة المقاومة الفلسطينية، وتبني الشخصيات الثورية للكوفية، بما في ذلك ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وبرز عرفات على المستوى الدولي بسبب مشاركته في تأسيس حركة فتح، وهي جماعة مكرسة لتحرير فلسطين من خلال الكفاح المسلح ضد إسرائيل. وصدرت صورة الناشطة المتشددة ليلى خالد – أول امرأة تختطف طائرة – وهي ترتدي الكوفية وتحمل بندقية الكلاشنكوف، الكوفية إلى الوعي الغربي كرمز للإرهاب.

ارتدت ليلى الكوفية بشكل بارز في العديد من الصور التي تم تداولها في الغرب، "وهو عامل مهم في تطور القطعة كعلامة دولية على التضامن الفلسطيني وقطعة غير مرتبطة بالنوع الاجتماعي"، كما كتب مؤرخ التصميم آنو لينجالا في كتابه "التاريخ الاجتماعي والسياسي للكوفية".

يقول المؤرخ نديم الدملوجي إن ارتداء ليلى للكوفية "الذكورية" "حوَّل الوشاح من أن يكون مجرد فعل ذكوري ليصبح ممارسة ذات دلالة"، وألهمت "مئات الشابات الغاضبات حول العالم" للبدء في ارتداء الوشاح أيضًا.

نيلسون مانديلا في اجتماع نظمه الاتحاد الوطني للشباب الجزائري في الجزائر العاصمة سنة 1990.

في البداية؛ كان الغربيون الوحيدون الذين ارتدوا الكوفية يريدون إظهار التضامن مع حركة المقاومة الفلسطينية، ومعظمهم من "النشطاء المناهضين للحرب في أواخر الستينيات"، كما يقول لينجالا، لكنه سرعان ما أصبح رمزًا لمناهضة الإمبريالية والسياسة اليسارية، التي ارتدتها شخصيات ثورية بما في ذلك فيدل كاسترو ونيلسون مانديلا، اللذين عارضا الفصل العنصري الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني. وأعلن مانديلا في سنة 1997، بعد ثلاث سنوات من انتهاء الفصل العنصري رسميًا في جنوب أفريقيا: "نحن نعلم جيدًا أن حريتنا غير مكتملة بدون حرية الفلسطينيين".

ومع اكتساب الكوفية شعبية في الغرب خلال أواخر السبعينيات والثمانينيات، تحولت من رمز للتضامن الفلسطيني إلى دلالة عامة على الليبرالية والمشاعر المناهضة للسلطة، واستخدمت للإثارة من قبل فنانين مثل مادونا، التي تم تصويرها وهي ترتدي الكوفية حول رقبتها في جلسة تصوير سنة 1982. وبحلول أواخر الثمانينيات؛ كانت قد سلكت طريق عدد لا يحصى من الأساليب الثقافية المضادة قبلها، وفي النهاية تم دمجها في الموضة الشعبية وتحولت إلى إكسسوار أنيق؛ حيث ارتدت ميلاني مايرون واحدة في فيلم ثلاثون شيئًا (1988) على شاشة التلفزيون، كما فعلت ساندرا بولوك في فيلم الجلادون سنة 1987.

واستمرت الكوفية كإكسسوار للموضة في التسعينيات: ويمكن رؤية كاري برادشو وهي ترتدي كوفية اختُلِفَ عليها في الموسم الرابع من مسلسل "الجنس والمدينة"، وكان ارتداء راف سيمونز للوشاح جزءًا من مجموعة ريوت ريوت الخاصة به – والتي تحمل عنوان من قبل صناعة الأزياء في ذلك الوقت باعتبارها "أنيقة إرهابية". وبحلول منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ومع ظهور "الهيبستر"، أصبحت منتشرة في كل مكان، ويرتديها الجميع من كيرستن دونست إلى ديفيد بيكهام، وكانت منفصلة تمامًا عن جذورها الثورية، وحتى ميغان ماكين شوهدت وهي ترتدي واحدة.

لقد عززت مجموعة "المسافر" لخريف 2007 من تصميم نيكولا غيسكيير، الكوفية كقطعة رائجة؛ حيث أرسل غيسكيير عارضة الأزياء البرازيلية فلافيا دي أوليفيرا إلى المدرج في تصميمه للوشاح، مما أدى إلى قيام مجلة "دبليو" بتسمية هذا المنتج كواحد من أفضل 10 إكسسوارات لخريف 2007. وبعد بضعة أشهر، قامت إيزابيل مارانت أيضًا بتنسيق العارضات بالكوفية والكاكي الأخضر العسكري كجزء من مجموعتها لربيع 2008.

> Back in 2008-ish (the last time we initiated the Gaza simulation), the keffiyeh was a hipster fashion statement and basically sold at every Urban Outfitters. So eventually even apolitical Mississippi sorority girls wearing them to look cute with zero context/understanding lol pic.twitter.com/Kg4583caFt
>
> Hyuna □□□□ CUTE/ACC □ (@Nopointproven) October 9, — 2023

وبحلول ذلك الوقت، لم يكن من الممكن الهروب من الكوفية، مع وجود خدع رخيصة ومقلدة بألوان صارخة متاحة في كل مكان من سوق كامدن في لندن إلى أوربان آوتفيترز، التي باعتها على أنها وشاح "مناهض للحرب" قبل أن يتم سحبها بسبب شكاوى من مؤسسة "قف معنا"، وهي منظمة

مناصرة مؤيدة لإسرائيل أرسلت رسائل شكوى إلى جانب صور مقاتلي حماس وهم يرتدون هذا المنتج إلى أعضاء مجلس إدارة شركة أوربان آوتفيترز ومساهمي الشركة. وقال أليسون روين تايلور، المدير المساعد لمنظمة "قف معنا"، لصحيفة جيروزاليم بوست: "يبدو من الغريب أن يتم اختيار شيء تم الترويج له على أنه وشاح يستخدمه الإرهابيون كوشاح مناهض للحرب. لا أعتقد أنه خيار بريء. إنه إما جهل محض أو أن شخصًا ما في قسم الشراء لديه أجندة سياسية ضد إسرائيل واليهود".

وبينما كانت الكوفية تتمتع بشعبية باعتبارها إكسسوارًا شعبيا في الغرب، اندلعت الانتفاضة الثانية، وهي انتفاضة كبرى نظمها الفلسطينيون ضد الاحتلال الإسرائيلي اندلعت في سنة 2000 وأدت إلى استشهاد أكثر من ثلاثة آلاف فلسطيني و1000 إسرائيلي. يبدو أن المقابلات مع الهيبسترز الذين يرتدون الوشاح تشير إلى أنهم لم يكونوا على دراية بتاريخها في السياق الفلسطيني، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه كان اتجاه غير مسيس تمامًا.

وحسب منشئ حساب إندي سليز على انستغرام، الذي تحدث عن هذه الفترة من تاريخ الموضة "من السهل أن ننسى أنه كانت هناك مشاعر قوية مناهضة لبوش سائدة حتى بين الهيبسترز غير السياسيين ردًا على غزو العراق"، وأضاف قائلًا: "هذا لا يعني أنني أعتقد أن الهيبسترز ارتدوا الكوفية إلى حد كبير كبادرة سياسية للتضامن – أنا متأكد للكثيرين أنها كانت مجرد اتجاه أزياء آخر يجب اتباعه، أو [شيء] يتم ارتداؤه ليكون استفزازيًا أو مثيرًا للسخرية، كما كان هناك بعض الرجعيين والسياسيين الذين اعتبروا الكوفية رمزا للإرهاب".

كولين فاريل في مؤتمر صحفي في بيفرلي هيلز سنة 2008.

لم تكن مناقشة الجذور السياسية للأوشحة غائبة تمامًا في ذلك الوقت؛ حيث نشرت صحيفة

نيويورك تايمز مقالًا في سنة 2007 بعنوان "حيث يعتقد البعض أنه من اتجاهات الموضة، والبعض الآخر يعتقد أنه اتجاه ذو صبغة سياسية"، والذي أوجز الجدل الدائر في ذلك الوقت، على الرغم من أن معظم التركيز كان على مدون أزياء يهودي يعتقد أنه رمز للإرهاب وعشاق الموضة الجاهلين الذين اشتروا الوشاح من شركة أوربان آوتفيترز . وقد قال أحدهم: "إنه الهيبستر 101: أحتاج إلى بنطال الجينز الضيق، ووشاح وقميص تي شيرت".

وقال آخر؛ كان قد اشترى مؤخرًا كوفية من بائع في سانت مارك بليس في نيويورك: "لست على دراية بما يحدث في الشرق الأوسط"، وأضاف قائلًا: "إنه اتجاه جمالي". وقد حاول الكثيرون تأطير الكوفية كرمز للكراهية والإرهاب؛ ففي سنة 2008، في ذروة شعبيتها السائدة، أدت الشكاوى من ارتداء راشيل راي للوشاح في إعلان لدانكن دونتس إلى سحب الإعلان، وهي خطوة أشاد بها المعلق السياسي المحافظ ميشيل مالكين – الذي وصف هذا الاتجاه بأنه "أزياء قائمة على الكراهية" – باعتباره انتصارًا "للأمريكيين المعارضين للجهاد الإسلامي والمدافعين عنه".

تصاعد هذا الخطاب في الشهر الماضي. ففي برلين؛ مُنع تلاميذ المدارس من ارتداء الوشاح لأن السلطات تقول: "يمكن فهمه على أنه تأييد أو موافقة على الهجمات ضد إسرائيل أو دعم المنظمات الإرهابية التي تنفذها". وفي الشهر الماضي؛ ذكرت طالبة أمريكية من أصل فلسطيني في جامعة كولومبيا، فقدت 14 من أفراد أسرتها في الغارات الإسرائيلية على كنائس غزة، أن زميلًا لها أوقفها في الحرم الجامعي بينما كانت ترتدي الكوفية وسألها عما إذا كانت "من أنصار حماس"، وأضاف قائلا" من المؤكد أنك تدعمين اغتصاب النساء وقطع رؤوس الأطفال".

ويوضح تينان؛ في إشارة إلى المحاولات الأخيرة التي بذلتها الحكومتان الفرنسية والألمانية لحظر الحجاب في المدارس والاحتجاجات، مشيرًا إلى الخطر الذي تشكله هذه "الممارسة المخلة بالنظام العام": "تشير الدعوات إلى حظر الحجاب إلى أن الكوفية رمز استفزازي وتخريبي، لكن هذا المنظور اختزالي"، وأضاف قائلًا: "إن الكوفية تشهد على الاحتلال المستمر للأراضي الفلسطينية. إن قصص الشعب الفلسطيني مدمجة في الكوفية، والتي أصبحت في الوقت الراهن رمزًا ذا مغزى ومناسبًا للنضال المستمر من أجل العدالة الاجتماعية".

رجل فلسطيني يتحدث إلى جنديين إسرائيليين خلال الانتفاضة الأولى لسنة 1988.

وربما من المفارقة أنه كلما أصبحت الكوفية أكثر شعبية في الغرب، قلّت ترجمتها إلى نعمة للاقتصاد الفلسطيني، ولم يبق اليوم سوى نسيج فلسطيني أصيل واحد. في هذا السياق؛ أوضح نائل القسيس، المدير التنفيذي لشركة الحرباوي، آخر مصنع للكوفية المتبقي في فلسطين، عبر البريد الإلكتروني: "بعد الانتفاضة الثانية [في سنة 2000]، أدى تدفق الكوفيات المنتجة بكميات كبيرة [من الصين] إلى تقويض سوق الكوفيات الأصلية المصنوعة محليًا بشكل كبير، ولقد أصبح من الصعب بشكل متزايد التنافس مع الأسعار المنخفضة للمنتجات المقلدة المستوردة، على الرغم من أن الكوفيات لدينا ذات جودة أعلى بكثير وتحمل أهمية ثقافية عميقة"، وأضاف قائلًا: "لقد هدد هذا الوضع بقاء صناعة نسج الكوفية الفلسطينية التقليدية، مما أدى إلى تقليصها إلى مصنع واحد عامل – وهو مصنعنا. كان لصمود الحرباوي وإصراره في مواجهة هذه التحديات دور حاسم في الحفاظ على هذا الجانب المهم من التراث الفلسطيني حيًا".

وبينما لقيت الكوفية شعبية مرة أخرى، إلا أن ذلك في مناخ ثقافي مختلف تمامًا عن المناخ الذي كان سائدًا في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين؛ حيث يوضح لينغالا: "على مدى العقد الماضي، ساعدت مواقع التواصل الاجتماعي في جلب الوعي السياسي والنشاط إلى الثقافة الشبابية السائدة. وفي ظل انتشار ثقافة التمييز، كان هناك أيضًا ارتفاع في الوعي المجتمعي بالاستيلاء الثقافي باعتباره قضية إشكالية أو مثيرة للجدل".

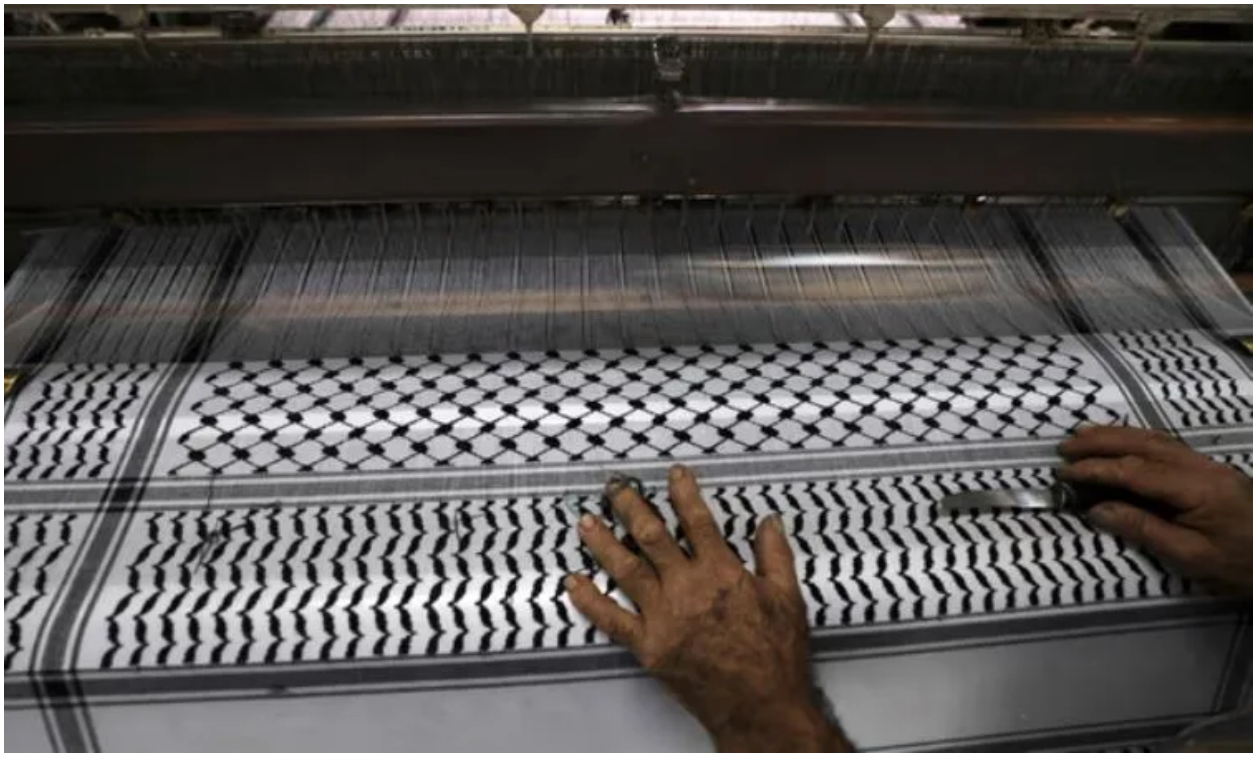

عامل يقطع الخيوط الزائدة في مصنع للنسيج ينتج الكوفية في مدينة الخليل بالضفة الغربية المحتلة الشهر الماضي.

في الشأن ذاته أوضح تينان: "لقد عادت الكوفية كرمز للتضامن الفلسطيني، ويعيد الكثيرون الآن اكتشاف تاريخ الكوفية ومعناها"، وأضاف قائلًا: "نرى أشخاصًا على مواقع التواصل الاجتماعي يشاركون قصصًا حول رمزيته، ويخلقون صورًا تشرح تاريخ النسيج ومعناه: نمط أوراق الزيتون الذي يشير إلى زراعة الزيتون، ونمط شبكة صيد السمك الذي يشير إلى البحر الأبيض المتوسط، والخطوط الجريئة التي تمر عبر تصميم النسيج لتمثيل طرق التجارة التي تمر عبر فلسطين التاريخية. وفي الوقت الراهن يُنظر إليها على أنها رمز للدفاع عن القضية الفلسطينية، لكن الكوفية تجسد أيضًا تطلعات أكبر حول العدالة الاجتماعية وإنهاء الاستعمار".

من المحتمل أن عودة الكوفية كرمز سياسي واضح لحق الفلسطينيين في تقرير المصير قد يكون بمثابة ناقوس الموت لمحاولات العلامات التجارية الصماء للاستيلاء على الكوفية مع تجاهل تاريخها؛ حيث تم سحب "بدلة المهرجان" لسنة 2017 من توب شوب، والتي تضمنت التصميم، بعد احتجاجات عامة، على الرغم من أن الفستان القبلي" لسنة 2019 من بوهو، والذي فعل الشيء نفسه، تمكن بطريقة من أن يمر دون إثارة ضجة. وأصدر فيرجيل أبلوه نسخة فاخرة أخرى من الوشاح لصالح مجموعة مويت هنسي لوي فيتون مؤخرًا في سنة 2021، بلون أزرق وأبيض مثير للإعجاب بشكل خاص، والذي يعتقد بعض المعلقين أنه محاولة حمقاء تكتسي صبغة سياسية.

من المثير للجدل أن بعض المصممين الإسرائيليين يصرون أيضًا على حقهم في استخدام الطباعة، مثل العلامة التجارية "دودو بار أور" التي يقع مقرها في تل أبيب. في الصدد ذاته، تحدثت المصممة لمراسل صحيفة نيويورك تايمز سنة 2018 عن قرارها باستخدام القماش الفلسطيني قائلة: "أخشى الدخول في مستنقع السياسة، لكنني نشأت مع قماش الكوفية – كنت أراه كل يوم، حيث تضم إسرائيل مجموعة من الثقافات التي تتشارك معنا جميعا". إن تبرير الاستيلاء الثقافي من خلال

"بوتقة الانصهار" بدا أجوفًا بعد منشورات "بار أور" المعادية للإسلام على مواقع التواصل الاجتماعي والتي بدت وكأنها تساوي بين دعوة المسلمين للدعوة للإرهاب بعد هجوم حماس في 7 تشرين الثاني/أكتوبر، وسُحبت العلامة التجارية لاحقًا من الوكلاء بما في ذلك من "نت أ بورتي" و"ماتشيز".

ويعني الاحتلال الإسرائيلي أن المنتِج الوحيد المتبقي للكوفية، الذي يتخذ من مدينة الخليل بالضفة الغربية مقرا له، يواجه تحديات لوجستية عديدة عندما يتعلق الأمر بمواصلة حرفته. ومن دون السيطرة الفلسطينية على حدودها، فإن قدرة شركة الحرباوي على استيراد المواد الخام وتصدير الكوفية تعتمد بشكل كبير على نقاط التفتيش الإسرائيلية والضوابط الحدودية التي غالبا ما تؤدي إلى تأخير التسليم وزيادة التكاليف.

بالنسبة للقسيس، الذي تشهد شركته العائلية "ارتفاعًا غير مسبوق في الطلب" من العملاء المقيمين في كل مكان من أيرلندا إلى المكسيك إلى اليابان، فإن ارتداء الكوفية في المناخ الحالي يتجاوز مجرد الاستيلاء الثقافي؛ حيث يقول "نحن نؤمن بأن ارتداء الكوفية الأصيلة المصنوعة في فلسطين هو أفضل شكل من أشكال التضامن الدولي. على الرغم من أن هذا الوضع يمثل تحديًا من حيث تلبية الطلب، إلا أنه يعد شهادة قوية على أهمية الكوفية والدعم الشعبي الدولي لفلسطين".

وأردف قائلًا: "نأمل أنه مع تزايد الطلب على الكوفيات الأصلية المصنوعة في فلسطين، فإن ذلك سيؤدي إلى افتتاح المزيد من المصانع في فلسطين. وهذا لن يؤدي إلى إحياء صناعة الكوفية في وطنها فحسب، بل سيؤدي إلى تعزيز البنية الاقتصادية لمجتمعنا، والحفاظ على هذا الجزء المهم من تراثنا حيًا ومزدهرًا".

المصدر: الغارديان

رابط المقال : https://www.noonpost.com/185931/